ندوة عالمية عن العلوم في العالم الإسلامي المعاصر

كوالالمبور: 9–10 يناير 2008

محمد الطاهر الميساوي*

مقدمة

يمثل النهوض بالعلوم الطبيعية وتطبيقاتها التقانية وإشاعة الروح والمناخ الكفيلين بترسيخهما في البلدان الإسلامية واحدًا من التحديات الكثيرة التي ما انفكت تواجه المسلمين منذ عقود عديدة من الزمن. فالعلم والتقانة يمثلان في أذهان الكثيرين، بل لدى غالب الفئات، شرطًا ضروريًّا -إن لم يكن الشرط الأول- لأية نهضة اجتماعية وتقدم اقتصادي وقوة سياسية؛ فكم كتب الكاتبون وتحدث المتحدثون من الساسة والمفكرين والباحثين الجامعيين وغيرهم عن "نقل" العلم والتقانة و"توطينهما" في مجتمعات المسلمين. ولكن يبدو أن دون بلوغ تلك الغاية خرطَ القتاد، فواقع الحال في الأغلبية الساحقة من البلدان الإسلامية لا يكاد يبشر بتوفر الشروط الدنيا لذلك أو بأنها يمكن أن تتوفر في مستقبل قريب، مهما كانت المعايير أو المؤشرات المعتمدة لقياس أوضاع العلوم والتقنية في العالم الإسلامي متسامحة. ولا شك أن أسبابًا وعوامل كثيرة متشابكة ومتبادلة التأثير تكمن وراء هذا الواقع، وأن تحليلها والكشف عنها

* أستاذ مشارك في قسم الفقه وأصول الفقه بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

يحتاج إلى جهود علمية متضافرة ومداخل منهجية متعددة تتناول الإشكالية من جوانبها وأبعادها كافة، ولا تكتفي بالتعامل معها من أفق أحادي النظرة.

"العلم الإسلامي" والرؤية الكونية الكلية

يبدو أن إدراك هذه الإشكالية في تعقيدها وتشابك أسبابها هو الذي حدا بإدارة المعهد العالمي للفكر والحضارة الإسلامية (ISTAC) التابع للجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا وأساتذته لأن يكون "العلم الإسلامي" (Islamic Science) موضوعًا لندوة عالمية يقدر أو يؤمل أن تكون هي الأولى في سلسلة ندوات في السياق نفسه. وليس المقصود بالعلم الإسلامي ما قد يسبق إلى الفهم مما يعرف عادة بالعلوم الإسلامية أو الشرعية كالتفسير والحديث والكلام والفقه والأصول إلخ، وإنما المقصود تلك الأفكار والتقاليد والممارسات العلمية التي حفظها تاريخ الحضارة الإسلامية بخصوص دراسة الظواهر الطبيعية والكونية وما يدخل في ذلك أو يتصل به من ضروب النشاط الذهني. وكأن منظمي الندوة راموا التبصر بالأطر المفهومية التأسيسية والرؤية الكونية الكلية والغائية الخلقية الاجتماعية والدوافع المادية والسياسية والسياقات الثقافية والحضارية التي حكمت النشاط العلمي للحضارة الإسلامية في دراسة موضوعات الظواهر الطبيعية والكونية من أجل استعادة الروح الذي سرى فيها ووجهها لتُبنى عليه جهود النهضة المنشودة للعلوم والتقانة في مجتمعات المسلمين الحاضرة، تواصلاً واعيًا مع رصيد الماضي وبناءً عليه، واستئنافًا بصيرًا بمعطيات الحاضر ومطالب المستقبل.

وهذا التوجه للندوة يلحظ بيسر في عناوين البحوث الثمانية والعشرين التي قدمها باحثون وأساتذة جامعيون (مسلمون وغير مسلمين) من ماليزيا وباكستان وألمانيا وتركيا وأندونيسيا وفرنسا ووسنغافورة ومصر والسودان. وقد عبر عنه بصورة واضحة الأستاذ الجامعي والمفكر الماليزي المعروف الدكتور عثمان بكر في الخطاب الافتتاحي للندوة في بحث بعنوان "العلم الإسلامي: نحو تحديد مشروعية مكانته

ووظيفته في مناهج التعليم المعاصرة". كما سار في الاتجاه نفسه البحث الثاني الذي قدمه الدكتور هانز دايبر Hans Daiber (الأستاذ بجامعة فرانكفورت بألمانيا) بعنوان "السبيل من الحكمة الإلهية إلى العلم في الإسلام". وقد تراوحت بحوث الندوة بين النظر في الأسس النظرية والأطر المفهومية للممارسة العلمية في الإسلام والدراسة التاريخية المقارنة لإسهامات العلماء المسلمين في مجالات معينة والتساؤل عن مدى كفاية التصورات والمفاهيم التي بلورها وصاغها العقل المسلم في الحقول العلمية المختلفة لمواجهة ما آل إليه تطور العلوم الطبيعية وتطبيقاتها المختلفة في ظل التجربة الإنسانية الراهنة التي هيمن عليها النموذج الغربي في العلم والمعرفة والتقانة.

وفي ختام الندوة خلص المشاركون فيها إلى جملة من التوصيات يمكن تلخيصها في الأمور الآتية:

- تأكيد ضرورة النظر في تقاليد اللممارسة العلمية في التجربة الإسلامية التاريخية من أجل التبصر بالروح والمعاني الحكمية التي وجهتها مما يمكن أن يثري مؤسسات المسلمين التعليمية والتربوية في الوقت الحاضر ويرسخ فيها مغزى الحاية الإنسانية وقيمتها وفق التصور الإسلامي.
- ضرورة تمثل السعي في طلب العلم والمعرفة في العصر الحديث في غائيته الروحية والخلقية تعميقًا لشعور الإنسان بالمسؤولية نحو الخالق سبحانه، ونحو الكون مظهرًا لحكمة الخلق، ونحو البشر الذين كرمهم كرمهم الله تعالى من بين سائر المخلوقات بما يعنيه ذلك من قيم أساسية تحكم حياة الإنسان.
- ضرورة تطوير فلسفة إسلامية في العلوم قادرة على تحقيق التوازن بين فكرة التغير والتقدم في البحث العلمي ومبدأ الثبات في الحياة والوجود، بما يحفظ على المسلمين عقائدهم وقيمهم ويمكنهم من الاستفادة من المنجزات العلمية.
- ضرورة السعي إلى تطوير تقاليد خاصة لممارسةٍ علمية أصيلة ومعاصرة في الوقت نفسه تكون مؤسسة على مبادئ الإسلام وقيمه الخالدة وقادرة على

التفاعل الإيجابي مع معطيات التجربة الإنسانية الراهنة في ميادين العلم والمعرفة.

- ضرورة بناء رؤية كلية شمولية لمجالات العلوم المختلفة قوامها مبدأ التوحيد والتوازن بين الأبعاد المختلفة للوجود والحياة.

هذا وقد خاطب الجلسة الافتتاحية للندوة معالي رئيس الجامعة الإسلامية العالمية السيد سنوسي بن جنيد بكلمة أكد فيها أن الوضع الذي آل إليه حال المسلمين في مجالات العلوم والمعرفة في العصر الحديث أمر لا يمكن قبوله سواء نظرنا إليه بمنظار التجربة التاريخية للحضارة الإسلامية أو قسناه بواقع الأمم المعاصرة التي استطاعت تحقيق نهضتها العلمية أو حاكمناه إلى مبادئ الإسلام وتعاليم القرآن الداعية إلى البحث والنظر والاعتبار. كما خاطب الجلسة الختامية الدكتور إبراهيم محمد زين عميد المعهد نيابة عن مدير الجامعة الإسلامية العالمية، حيث أكد أهمية موضوع الندوة وضرورة متابعة البحث في القضايا التي أثيرت في البحوث وخلال المناقشات بصورة أكثر تركيزًا وتقصيًا، كما نبه على ضرورة التعاون والتنسيق بين المؤسسات العلمية في العالم الإسلامي والسعي لنسج شبكة علاقات بين العلماء والباحثين من أجل بناء جماعة علمية إسلامية ذات رؤية أو منظور كلي موحد.